

رسائل غرام

بين نساء شهيرات ورجال عظام

الرسالة التاسعة

* من جوزيفين الى نابوليون بونابرت *

(لا نخال أحداً من القراء يجهل اسمي جوزيفين وبونابرت وما وقع بينهما من النفور الذي أفضى الى الطلاق . وكان ذلك في أواخر سنة ١٨٠٩ . الآن جوزيفين ظلت ترسل نابوليون حتى أيامها الاخيرة . ولو سمحت لها الدول المتحالفة لرافقتة الى منفاه . وكان موتها في سنة ١٨١٤ أي بعيد سقوط نابوليون . وقد وصفها جميع المؤرخين بالصفات الطيبة وأجمعوا على ان نابوليون كان مديناً لها بأمر كثيرة لا يسعنا الاسهاب فيها الآن . قبل انما كانت تتشائم من ارتقائه الى العرش وتخشى ان يحمله ذلك على طلاقها والاقتران بأميرة من أميرات الأسر المالكة . وقد تم ذلك . أما الرسالة الآتية فقد بعثت بها اليه على أثر ولادة ولي عهده من ماري لويز) :

صحت اليوم وفرح النوايس يلاً اجوّ وهزيم المدافع يرت في الفضاء . فسألت عن السبب فقيل لي ان جلالة الامبراطورة قد وضعت مولوداً سيرت عرش فرنسا ويضيف صفحة مجد جديدة الى تاريخ آباءه . وقد كنت أودّ لو بلغتني هذه البشارة منك قبل ان اسمعها من افواه الناس فكنت افرح لفرحك وتقرّ عيناى بأن ترى لك من يخلد لك ذكرك ويورثه للأجيال المقبلة . فان ساءك اني تمنيت سماع هذه البشارة من فك فان ما كان بيننا من العهد السابق شجعني على تعليل نفسي بهذه

الامنيّة . ولعلّ ذكرى أيامنا الماضية تشفع بي لديك وتبدد عن محياك
غمامة الكدر والاستياء

لست اقصد يا صاحب الجلالة ان اراضيك بهذه الرسالة او أكفر
عن سيّاتي الماضية اليك . فان تلك السيّات أعظم من ان يشفع بها ما
اعانيه من ممرض هذا الفراق واحتمله من اراجيف الوشاة . لاسيما
وانني لا أعرف لنفسي حسنةً سوى انني أحببتك حباً يقرب من العبادة
فكان جزاء حيي لك انك فصمت عري موثيقنا المقدسة بحجة انني لم
أدلك من يرث عرشك من بعدك . وبلغت منك القسوة أن اتهمتي
بأمور ما أنزل الله بها من سلطان

ولست بلائمتك على تصرفك هذا يا صاحب الصولجان . ولكن
راعني ما رأيت نفسي فيه من اليأس . فرأيت ان أبسط اليك كتابي هذا
واهني شعبك بولي عهدك ووارث عرشك . مع انني احسبك في غنى عن
يخلدك ذكرك لان الذكر الذي قد خلفته ستتوارثه الاجيال المقبلة خلفاً
عن سلف . ولسوف يأتي يوم يرى فيه العالم ان الالهة أساءت اليّ
أكثر مما أسأت انا اليك اذ لم تقدر لي ان أهبك من يخلدك ذكرك
من بعدك . لذلك حاولت ان تنتزع حيي من قلبك . فلجأت الى غيري
لتبلغ بها ما كانت نفسك تطمح اليه . فهنيئاً لها من امبراطورة سعيدة
وهنيئاً لفرنسا بوارثها المقبل

ولقد رضيت بنصبي هذا بعد ان احتملت منه في اول الأمر ما
تنوء من ثقله راسيات الجبال . وكنت أقول يومئذ ان الزمان هو الطيب

الأكبر فلن يمرّ العام حتى انسى ما بيننا من وعودٍ وعهود . وهوذا الآن
قد مرّ ذلك العام وانا لا ازال اعاني ما كنت اعانيه يومئذٍ من غصص
وحسرات

والذي يحزني اكثر من كل شيء هو اني محرومة رؤيتك اذ تمرّ
بي ايام طويلة مملة ولا ارى لك حتى شبه خيال الأفي الحلم . ولو تعلم
شدة هذا العقاب لكان لي من دموعي شافع لديك . ولكنك قد انغمضت
عينيك فلست ترى ما اعانيه من غصص مبرحة . واذا كان في العالم قوة
تمنعني عن اخماد انفاسي بيدي فذلك لأنني واقفة على عتبة الأبدية وقد
غطت فيها ركبتي . فلماذا أضيف الى آثمي المديدة اثماً آخر بوضع
حدٍ لأنفاسي بيدي ؟ وفضلاً عن ذلك فان موتي يورثك من تأنيب
الضمير ما لا اطيق ان أراك معذباً به . ولأشهى على قلبي ان أراك سعيداً
ولو على بعد منك ، من ان تعيش معذباً وانا قريبة اليك

كان ينبغي ان افرح لفرحك اليوم . ولكن ذكرى عهدنا السالفة
لم تبق في قلبي مجالاً للسرور اذ كيفما التفت ارى ما يروعني من الفرق
بين الامس واليوم . ويزيد روعي كلما تأملت في ما عسى ان يجيء به الغد
وقد يتمثل لي شبح الغد بصورة تنين هائل . فيزيدني انقباضي ولا ارى
من خلال ظلمته الخالكة الا شعاع امل ضعيف هو ان انام اليوم ولا
استيقظ في الغد . ترى هل يحزنك غداً موت امرأة كنت تعبدها
بالأمس ؟ أم يصدق فيك المثل القائل ان البعيد عن العين بعيد ايضاً
عن القلب ؟

لا يسوءك عتابي هذا فان اليأس الذي انا فيه هو الدافع لي على
النطق بكلامٍ ربما لا ترضاه . وانني ليدهشني فرط الشجاعة التي بدت
مني في خلال العام الغابر اذ لم اكن اصدق قبلاً ان امرأة مثلي تستطيع
ان تحتمل ما احتملته من عذاب وشقاء . والذي شجعني على احتماله هو
أمل ان يكون لي من ورائه كفارة عن هفواتي تشفع بي لديك وتنسيك
كل شيء ما عدا حسنتي الوحيدة وهي اني أحببتك حباً مخلصاً على رغم
ما كان يبلغك عني من الارجيف . وليست غايتي الآن ان ادافع عن
نفسي بين يديك ، فإن ما كان بيننا قد انطوت صفحته ، وقضاءك لا مرد
له . وانما أردت ان انبهك الى أمرٍ قد يسهوه عنه الملوك والعظماء . وهو
ان واضع الشرائع يجب ان يكون نموذجاً للعدل . واما انت فقد وضعت
نفسك موضع الخصم والحكم ، وسددت اذنيك عن سماع صوت
الرحمة والرافة

لما كنت أسمع بانتصاراتك الباهرة كنت أفرح وأشعر كأني حاملة
راية النصر . ولا أزال حتى الآن أتوق الى سماع أخبار انتصاراتك وأتمنى
ان تزيد منها كل يوم صفحةً جديدة الى تاريخك المجيد
وفي الختام اقبل تهنئاتي لك بوارث عرشك وأطال الله بقاءك حتى
ترى اولاد اولاده

مورفين

(بقلم سليم عبد الاحد)

